جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

المرحلة: دكتوراه التاريخ الحديث

المادة: تاريخ الدولة العثمانية

العام الدراسي: ٢٠٢٣/٢٠٢٤

عنوان المحاضرة

الازمة الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية خلال عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)

مدرس المادة

الاستاذ الدكتور يوسف عبد الكريم طه مكي الرديني

الازمة الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية خلال عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)

يعد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) من اكفأ سلاطين آل عثمان مقدرةً وحنكةً ووعياً وفهماً واطلاعاً، اتصف بالورع والتدين، وربيَّ تربية إسلامية انعكست على شخصه طوال حياته[١].

تلقى الامير عبدالحميد قبل توليه شؤون الحكم تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على ايدي نخبة مختارة من اشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً، وتعلم اللغة العربية والفارسية ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الاشعار في اللغة العثمانية[٢].

أكتسب الامير عبدالحميد مهارات كثيرة وخبرة سياسية عن طريق الرحلات الخارجية التي قام بها إلى أوربا، ولاسيما رحلته برفقة عمه السلطان عبدالعزيز على رأس وفد عثماني رفيع المستوى إلى فرنسا وبريطانيا وبلجيكا والنمسا والمجر، واطلع خلال رحلته هذه والتي امتدت من ٢١ حزيران لغاية ٧ آب ١٨٦٧م على مظاهر الحياة الأوربية بكل ما فيها من طرق معيشة غربية واخلاقيات مختلفة وشكليات، وقد تأثر عبدالحميد في هذه الرحلة بمشاهداته المختلفة، مما دفعه إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة إلى دولته على الصعيد الاقتصادي والتعليمي والعسكري ومجالات الحياة الأخرى[٣].

واجه السلطان عبدالحميد الثاني منذ توليه الحكم في ٣١ آب ١٨٧٦م تحديات داخلية جمه كادت أن تقضي على كيان الدولة العثمانية وفي مقدمتها تحدي الأزمة الاقتصادية والمالية، لولا براعته وحنكته السياسية والإدارية، إذ تعرض السلطان عبدالحميد الثاني في بداية حكمه إلى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد[٤]، والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب ونجحت الأيادي الماسونية[٥]، في تجنيدها لخدمة أهدافها، ومحاولة أعضاء هذه الجمعية فرض الدستور (القانون الأساسي) على السلطان وضرورة تطبيقه واطلاق الحريات العامة، وبين السلطان عبدالحميد الثاني بان موقفه ليس دائماً بالضد من الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها وأوضاع دولته
الصعبة كانت لا تتفق مع فرض الدستور ومنح الحريات[٦].

مرَّ السلطان عبدالحميد الثاني أبان عهده بظروف صعبة وازمات شديدة، وتآمر دولي عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج، فشرع في إصلاح أوضاع الدولة على وفق التعاليم

الإسلامية لمنع التدخل الأوربي في شؤون دولته وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية، وقاوم جميع الاتجاهات المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة في ولايات الدولة، واستطاع وهو على حق، أن يشكل جهازاً استخبارياً قوياً لحماية الدولة من الداخل وجمع المعلومات عن اعدائه في الخارج، واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق من خلالها نتائج عظيمة، عبرَّ فيها عن ثقته بوحدة العالم الإسلامي، واهتز الأوربيون من هذا الفكر الاستراتيجي العميق الذي كان يملكه السلطان مما دفعهم بالعمل على تفكيكه[٧].

ان من التحديات الخطيرة التي واجهت حكم السلطان عبدالحميد الثاني واثبت عن طريقها مدى وطنيته وحبه لأرضه، وحرصه على وحدة أراضي الدولة العثمانية كافة، هو اتخاذه التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي لليهود في فلسطين، وعمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز لهم وللحركة الصهيونية، ورفض بشدة الانحناء لإغراءات هذه الحركة مقابل تنازله عن أرض فلسطين، فأمتنع فنال جزاء موقفه المشرف هذا، ان خسر عرشه ودولته، لكن لم يخسر شخصيته ومروءته ودينه[٨].

هدف البحث إلى التصدي بدراسة تحليلية لأبرز تحدي داخلي واجه السلطان عبدالحميد الثاني منذ توليه الحكم وطيلة عهده، إلاّ وهو تحدي الأزمة الاقتصادية والمالية، وبروز شخصية السلطان وصلابته ونجاحه في ايجاد الحلول الكفيلة لمواجهة أثار الأزمة المذكورة وبشتى السبل.

وتتبع البحث في البداية جذور الأزمة الاقتصادية والمالية قبل تولي السلطان الحكم، واجراءاته الفعالة لمعالجة أثار هذه الأزمة على الصعيد الداخلي، وفكره الاقتصادي الثاقب في تأسيس ما سميَّ (بإدارة الدين العام العثماني) التي أنقذت الاقتصاد العثماني طيلة مدة حكمه، وايضاح أهم الإنجازات الاقتصادية التي حققها السلطان عبدالحميد الثاني على صعيد الدولة وولاياتها.

شخصية السلطان عبدالحميد الثاني وحياته الخاصة:

يُعد السلطان عبدالحميد الثاني السلطان الرابع والثلاثين من بين سلاطين الدولة العثمانية، وهو الابن الثاني للسلطان عبدالمجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١م)، ولد يوم الاربعاء ٢١ أيلول ١٨٤٢م، (١٦ شعبان ١٢٥٨هـ)، في ليلة النصف من شعبان بقصر (جراغان) القديم للسيدة تيرموزغان[٩].

وبعد وفاة والدته بمدة وجيزة والتي حزن عليها عبدالحميد حزناً شديداً، كلف ابيه السيدة (برستو) برعايته بعد ان فقد والدته وهو لا يزال طفلاً صغيراً، وتلقى عبدالحميد تعليماً وتربية ورعاية على مستوى عالٍ يليق بعقر الخلافة[١٠].

كان لديه شغف كبير بالتاريخ، ولاسيما التاريخ الحديث، فتعلم التاريخ العثماني على يد كاتب الوقائع (لطفي افندي)، وكان يؤمن بأن التاريخ مرأة العبر والعظات، ولهذا السبب كان يأمر بإعداد

ملفات خاصة لكل الأحداث التي تقع في عهد سلطنته، وكان يأخذ مشورة رجال العلم والفكر في حله للمشكلات. وعرف عنه احترامه للعلم واهله احتراماً بالغاً، فكان عند ذهابه إلى مكان ما، أو عند عودته إلى القصر يجلس أساتذته الموجودين معه إلى جانبه في عربته الخاصة[١١].

ومن الافتراءات الحاقدة التي الصقت بالسلطان عبدالحميد انه لم يلتق تعليماً جيداً، إلاَّ أنَّه ثمة اتفاقاً في المصادر التاريخية، على ان السلطان تلقى دروسه على ايدي افضل الاساتذة الذين خصصوا له، وانه ايضاً اتم دروسه بحصوله على اعلى التقديرات. فقام بتحصيل علوم عصره مثل الرياضة وركوب الخيل على يد المرّبي محمد صادق أغا والمابينجي (امين السر) عثمان افندي، وتعلم فنون استخدام السلاح والمعلومات العسكرية الأخرى من قبل ضباط ياور السلطان المختلفين، واطلع على تعاليم معظم الطرق الصوفية في عصره[١٢].

كان السلطان في الوقت نفسه خطاطاً بارعاً، ونجاراً وكانت لديه ورشة نجارة ومزارع خاصة به، وكانت الاشياء التي صنعها بنفسه من خزائن الثياب الخشبية والمناضد والصناديق تحظى بتقدير اهل الخبرة في ذلك الفن، وكما رعى الأغنام واشتغل بالمعادن، واكتسب الأموال، وانفق ثروته في خدمة الدين والدولة وقدرت ثروته قبل توليه العرش بحوالي مائة الف ذهبية[١٣].

ونظراً لذكائه وميوله السياسية، فقد رباه عمه السلطان عبدالعزيز تربية ونشأة حرة واصطحبه معه في رحلاته إلى مصر عام ١٨٦٣م وإلى أوربا عام ١٨٦٧م[١٤].

كان السلطان عبدالحميد الثاني يقضي اوقاته الخاصة في دراسة علوم الدين والطبيعة، وكان له شغف خاص بالتجارة وركوب الخيل، واستخدام الاسلحة، وكان واسع الاطلاع مقتصداً على نفسه، كريماً في الخير والاحسان، صاحب رأي مستنير، يتابع دوماً الصحافة المحلية والأجنبية، ويرغب في معرفة كل شيء وتعلمه بشكل جيد، وأتخذ من جده السلطان محمود الثاني مثالاً اعلى له، وتمتع بذكاء حاد وحافظة قوية، فكان لا ينسى الشخص الذي رآه، أو سمع صوته، مهما مرَّ عليه من الزمن وكان غاية في اللطف، يعرف جيداً كيف يستحوذ على قلوب الناس جميعاً[١٥].

كان السلطان يمتلك ذكاء خارق، بل حاد الذكاء بشكل يصعب وصفه، وكان يتذكر عند مناقشة شؤون الدولة في حضرته كل ما يتعلق بالأمر، حاضره وماضيه وما وقع قبل عدة سنوات، وما يخص الشؤون الداخلية والخارجية، وكان رجال الدولة يدركون هذه الميزة في السلطان وهم لا يشعرون بالحاجة لأن يأتوا بالدفاتر القديمة للقضية التي يناقشونها معه، وكانوا يقولون: ((على اية حال سيشرح السلطان هذه القضية بتفرعاتها))[١٦]. وان هذا الذكاء المدهش من قبل السلطان وقدرته في إدارة شؤون الدولة كان له الأثر الكبير في اطالة عمرها.

ولم يكن السلطان عبدالحميد الثاني صاحب الحديث مع محدثيه، يتحدث بأسلوب غاية في الفصاحة. هذا إلى جانب وقاره وجدته، وهيبته، ولم يكن الناظر يمل من الاستماع إلى حديثه[١٧]. وكان لديه نوعان من الملابس، ملابس بسيطة يرتديها في الاوقات العادية، وصدر هذه الملابس مطرز بخيوط الذهب، ومُعلق عليها نياشين الدولة العثمانية، ويرتدي معطفاً اسوداً يمتد حتى ركبته، اما في الاوقات الرسمية فكان يعلق النياشين العثمانية على ملابسه الرسمية التي تتوافق مع المناسبة، وعندما كان يلتقي رجال الدول الأجنبية، كان يعلق النياشين التي منحتها اياه الدول الأجنبية على ملابسه الرسمية تلك، وكان يضع دوماً على رأسه طربوشاً احمراً[١٨].

ولم يكن السلطان يرغب في ان يقف زائروه امامه –مهما كان مقامهم– بل كان يشير بيده إليهم ليجلسوا في المكان الذي يختاره لهم، ويسأل زائره –أول ما يسأل– عن عائلته وابنائه واحواله ويستفسر منه عن مطلبه، وفي نهاية الزيارة يغدق على كل من اتاه بالنياشين والهدايا مما هو متوفر لديه في ذلك اليوم إلى جانب انه كان يعطي المحتاجين[١٩].

وكان السلطان يأكل مرتين فقط في اليوم والليلة، وجل ما يشربه من شراب هو الماء الصافي فحسب، ويخصص ثمانية عشر ساعة يومياً لإدارة شؤون الدولة، وينام نحو اربع ساعات فقط، وكان إذا ما أخطأ أحد ممن هم في خدمته في القصر، يقوم باستدعائه على الفور، ويحذره بأسلوب هادئ ويُذكره بضرورة الوفاء بحق الوظيفة المنوطة به، ويهدأ من روعه في النهاية حتى لا يتضايق[٢٠].

وعرف عن السلطان عبدالحميد الثاني مراعاته للعبادات والطاعات لأقصى درجة، وفي هذا الصدد ذكرَ المابينجي فخري بك قائلاً: ((كان الغازي عبدالحميد ملك ملوك العالم، وسلطان الامم ذا صلابة في الدين، ومن رجال الطريقة المقيمين للصلاة والصوم، ولأنه كان شخصية عالية القدر متصفاً بحميد الخصال، مداوماً على أوراده الخاصة، فقد أصبح جلوس السلطان محل تبرك وتيمناً للجميع))[٢١]. وكان يخرج ايام الجمع للصلاة في جامع بالقرب من دائرة مراسم الاستقبال بالقصر، وكثيراً ما كان يخرج للصلاة في جامع يلدز، ولم يكن يتخلف عن هذه المراسم مهما كانت الظروف الجوية ثم يبادر بالسلام على جميع الموجودين هناك[٢٢]. وقد نبه في اوامر رسمية على ابناء الشعب ان يلتزموا ويدققوا في امور عباداتهم.

كان السلطان عبدالحميد يخصص الكثير من وقته في قراءة العديد من الكتب الموجودة في مكتبته التي تتجاوز محتوياتها العشرة آلاف كتاب، وكان مهتماً بتاريخ العثمانيين والسياسة العالمية، ثم يعاود بعد ذلك متابعة شؤون الدولة حتى وقت العصر، ويستمر حتى ساعة متأخرة من الليل[٢٣].

كان السلطان عبدالحميد الثاني أحد السلاطين الذين احتلوا موقعاً متميزاً بين السلاطين العثمانيين، ومن انجح الحكام الذين تولوا حكم الدولة العثمانية، كان هادئاً للغاية يعيش بعيداً عن المظاهر والبهرجة، وكان يستمع إلى المتخصصين عندما يناقش قضية ما، إلاَّ أنَّه لا يقع اسيراً لها، أدار دفة الدولة بعقلانية متناهية في
ظروف بالغة الصعوبة[٢٤].

كان السلطان عبدالحميد الثاني حساساً جداً بشأن تطبيق تعاليم الإسلام وأوامره، واجتناب نواهيه ولا يطأ موضعاً دون وضوء، وكان يفعل كل ما بوسعه من أجل منع المنشورات والمطبوعات الضارة المخالفة للإسلام داخل البلاد وخارجها وحتى يحافظ على وحدة المسلمين[٢٥].

كان السلطان شجاعاً متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، فعندما حدث زلزال شديد في عام ١٨٩٤م، اثناء اجتماع السلطان في قاعة المعايدة الكبرى بسراي (ضولمهباقجة) مع أركان الدولة والضباط والباشوات والمئات من ممثلي الدولة من ابناء الوطن والاجانب، وكان السلطان يجلس اسفل نجفة كبيرة الوزن تهتز يميناً ويساراً، وفيما كان الباشوات الابطال والضباط الشجعان والغزاة الذين قضوا عمرهم في الحروب يهربون بسرعة إلى الخارج، لم يتحرك السلطان من مكانه، وأخذ يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم من دون أن يتأثر وضعه وهندامه، وكان ينتظر انتهاء الزلزال بتوكل بالغ ووقار عظيم[٢٦].

يُعد السلطان عبدالحميد الثاني أول سلطان عثماني يذهب لأداء فريضة الحج سراً، ويوضح هذا الأمر الذي لم يعرفه احد حتى الآن، شخص كان يعمل مرشداً للحجاج في مكة والمدينة في عهد السلطان عبدالحميد الثاني قائلاً: ((كان موسم الحج قد بدأ فذهبت لألقى الحجاج الذين يفدون من كل أنحاء العالم إلى الحج بصفتي مرشداً للحجاج، ولأنني تأخرت بعض الشيء لم يبق ليَّ أحداً ارشده، سألني أحد الاتراك، اعتقد انه ليس غنياً بالقدر الكافي مما يرتديه على رأسه، قائلاً لي: أيمكنك ان تعمل لديَّ مرشداً في الحج. وفي ظل حاجتي قبلت اقتراحه مع قناعتي بأنني لم احصل منه على الكثير. وفكرت في عائلتي وإنني محتاج إلى الإنفاق عليها، وبدأت عملي معه، وكنت دليلاً لذلك الشخص طوال مدة الحج))[٢٧].

وعندما انتهى موسم الحج وجاء موعد الرحيل، قال ليَّ ذلك الشخص الذي لم يتحدث كثيراً طوال مدة الحج والذي بدى من خلال سلوكه انه انسان طيب: ((خذ هذا المظروف ولا تفتحه حتى اغيب عن عينيك، ثم اذهب به فوراً إلى والي مكة، وأخذ مني وعداً جاداً بان لا افتحه، فعدت من فوري وذهبت إلى مكة وأعطيت الظرف للوالي، وما أن فتحه حتى نهض على قدميه قائلاً: ختم السلطان

عبدالحميد خان))[٢٨].

((وتحجرت في مكاني من الدهشة، فإذا بالذي كنت دليله طوال مدة الحج كان السلطان العثماني عبدالحميد خان، وفي الرسالة كان قد أمر الوالي بأن يعطني داراً كبيرة وان يخصص ليَّ ولأبنائي راتباً، من مثلي نال هذا الاحسان))[٢٩].

كان السلطان عبدالحميد الثاني يأمر بإيقاظه فوراً في أي وقت كان من الليل، اذا حدث أمر عاجل، ولا يرضى بتأجيله إلى اليوم التالي، ويؤكد ذلك أسعد بك باش كاتب المابين قائلاً في هذا الصدد: ((طرقت باب السلطان منتصف احدى الليالي من أجل التوقيع على ورقة في غاية الأهمية، إلاَّ أنَّه لم يفتح، فأعدت طرق الباب بعد ان انتظرت فترة، فلم يفتح ايضاً، فاندهشت متسائلاً ترى أوقع أمر الله بالسلطان؟ وبعد قليل طرقت الباب مرة أخرى ففتح، وكان السلطان يجفف وجهه بمنشفة في يده وقال مبتسماً يا بنيَّ، لقد ادركت انك جئت في أمر مهم جداً في ذلك الوقت فتوضأت ولذلك تأخرت لا تؤاخذني فأنا على هذا منذ زمن، لم اوّقع على ورقة قط من اوراق الامة، دون وضوء. هات ما عندك لاوقع عليه. فسمى الله سبحانه وتعالى ثم وقّع عليه))[٣٠].

لقد كان لقوة شخصية السلطان عبدالحميد الثاني وصلابته –كما مرَّ بنا– أثرها الكبير في تصديه لأبرز تحد واجهه في عهده، وهو تحدي الأزمة الاقتصادية والمالية، ونجاحه في ايجاد الحلول الكفيلة لمعالجة آثار هذه الأزمة، في حين فشل الاخرون قبله، وكل ذلك لأنه كان يملك فكر اقتصادي إصلاحي.

.